

وفد الكتّاب العالميين : عاصفة سياسية وثقافية «هناك» !

مراد السوداني

أثار وصول عدد من الكتّاب العالميين الحاصلين على «جائزة نوبل» ضمن وفد برلمان الكتاب العالمي إلى فلسطين، تضامناً مع الشاعر محمود درويش المحاصر برام الله، والشعب الفلسطيني المحاصر، زوبعة من الاعتراضات وردود الفعل الاحتلالية والاتهامات وحملات التشكيك التي تضخّها الماكينة الإعلامية الاحتلالية..

وشملت الزيارة جولات في الضفة الغربية وقطاع غزة للوقوف على الظروف التي يعيشها الشعب الفلسطيني منذ 18 شهراً، بسبب الحصار وسياسة التجويع والعقاب الجماعي التي تنتهجها إسرائيل، «وتفوقت بها على نظام الابارتهايد في جنوب أفريقيا»، وفقاً لما أكده حقوقيون من جنوب أفريقيا خلال زيارة فلسطين عشية انعقاد مؤتمر ديربان بجنوب أفريقيا.

هذا وقد عقد أعضاء الوفد المكون من: رسل بانكس (الولايات المتحدة) الأمريكية، روائي انتخب رئيساً للبرلمان العالمي للكتاب العام 2001. وول سوينكا (نيجيريا)، حائز على جائزة نوبل في الآداب 1988، ترأس البرلمان العالمي للكتاب من 97 - 2001. خوسيه ساراماغو (البرتغال)، حائز على جائزة نوبل في الآداب (98)، عضو مؤسس للبرلمان العالمي للكتاب. بي داوو (الصين)، عضو مؤسس للبرلمان العالمي للكتاب، شاعر وناشط في حقوق الإنسان. خوان غويتسولو (إسبانيا)، عضو مؤسس للبرلمان العالمي للكتاب. فنسنرو كونسولو (إيطاليا)، عضو مؤسس للبرلمان العالمي للكتاب. كريستيان سالون (فرنسا) مؤسس البرلمان العالمي للكتاب، سكرتير البرلمان. برايتن برايتنباخ (جنوب إفريقيا)، شاعر وروائي وفنان تشكيلي.

عقد الوفد لقاءً ثقافياً مع المثقفين والكتّاب والفنانين في مركز خليل السكاكيني برام الله، الذي هو مكتب الشاعر محمود درويش ومقر مجلة الكرمل، حيث ضم اللقاء نخبة من المبدعين والشعراء والفنانين والصحافيين الفلسطينيين الذين استمعوا لما طرحه الوفد من كلمات وجدت تأثيرها في نفوس الحضور،

وكما عبر الوفد عن حجم المأساة التي صنعها الاحتلال على هذه الأرض، وأعربوا عن تضامنهم الأكيد مع الشاعر محمود درويش الذي تحاصره وشعبه دبابات الاحتلال وآلات عدوانه، كما استمع الوفد إلى مداخلات من عدد من الشعراء والمبدعين والذين وضعوا الوفد في صورة القتل والتدمير التي تبرمجها حكومة الاحتلال، ومدى الحصار الذي يفرض على الابداع الفلسطيني نصاً وإنساناً، والأكاذيب التي تروجها المؤسسة الإعلامية الاحتلالية.

كما عقد أعضاء الوفد مؤتمراً صحافياً في المركز الإعلامي الفلسطيني في مدينة البيرة، توأم رام الله، تحدث فيه ساراماغو، ومما قاله: «يجب أن نقر جميع الأجراس في العالم لتقول: إن ما يحدث في فلسطين هو جريمة يجب وقفها، ويمكننا مقارنتها بما حدث في أوشفيتز، المعتقل النازي في بولندا». وأضاف: «مع الأخذ بعين الاعتبار تباعد الأزمنة والأمكنة فإن الأمر هو ذاته وإن ما يحدث قد تم نقله .. إن ذلك يعني أن الأرض هي معسكر اعتقال .. ليست معتقلات هناك .. ولكن من منظور الجيش، جيش الاحتلال الإسرائيلي، فإن رام الله هي معسكر الاعتقال وأنتم جميعاً سجناء فيه ، ورداً على سؤال الصحافة الاحتلالية إذا ما كانت هناك (غرف غاز، أيضاً) قال ساراماغو: «أتمنى أن لا يكون ذلك ولكن يجب أن ندرك أن هناك أموراً كثيرة ترتكب وليست لها علاقة بالنازية وإنما بالأحداث نفسها وبروحها» وتابع: «إننا نكتب نستطيع عقد مقارنات لأنه يجب على الواحد أن يوقظ أرواح وعقول الناس».

أما الاسباني خوان غويتسولو فيقول : «مع كل يوم جديد من أيام الانتفاضة يزداد العنف، ليظهر مدى جنون سياسة شارون . يقول شارون أنه سيفاوض الفلسطينيين بعد قبولهم بالهزيمة واعترافهم بالانسحاق. لكن ذلك لن يحدث أبداً. ومن المهم أن نسمع شخصاً مثل ماريو فارغاس اللوسا الذي يحمل مشاعر مؤيدة لإسرائيل يقول إن شارون ليس العدو رقم واحد للشعب الفلسطيني فحسب، ولكنه وعلى المدى البعيد العدو رقم واحد لإسرائيل، أيضاً، لأن سياسته تتناقض مع سياسة البلد».

ويضيف غويتسولو : «يجب حل المسألة سريعاً. أعتقد أن الرأي العام في إسرائيل سيدرك في القريب العاجل أن هذه الطريق لا تؤدي إلى نتيجة. دافع السلام الذي نتطلع إليه لم يظهر بعد في إسرائيل، ولكن عندما يدرك الناس أنهم في طريق مسدود وأن هذا العدد من القتلى لم يسقط في إسرائيل من قبل سيتحركون.. سوف يتحدث وفدنا مع مثقفين فلسطينيين مثل محمود درويش ولكننا سنتكلم مع مثقفين إسرائيليين، أيضاً».

كما تحدث في السياق ذاته كل من الكاتب النيجييري سوينكا وحمل إسرائيل مسؤولية ما يحدث لأنها توزع القتل والدمار وتضطر الفلسطينيين للمقاومة والدفاع عن أنفسهم.

كما قام الوفد الضيف بزيارة لمخيم الأمعري برام الله، الذي حاصرته دبابات الاحتلال وأحدثت فيه الدمار والخراب وأسقطت فيها عدداً من الشهداء والجرحى والمعاقين في أعقاب اجتياحها لمدينتي رام الله والبيرة مؤخراً.

وقد تفقد الوفد العديد من المنازل والمواقع التي تعرضت للدمار والتخريب، وأبدى الكتاب تعاطفهم مع

الأسر المتضررة في المخيم.

كما قام الوفد بزيارة حاجز «سردا» على طريق بيرزيت، هذا الحاجز الذي يذيق المواطنين العذاب يومياً، كما قام الوفد بزيارة جامعة بيرزيت، وقالت تانيا ناصر التي رافقت الوفد إلى هناك: لقد قطع الكتاب الحاجز العسكري مشياً على الأقدام كبقية الفلسطينيين وقد نهلوا من «الموقع القريب» الذي يتمترس فيه جنود الاحتلال على جبل يطل على الحاجز، كما اضطروا لتجاوز الحفر التي أحدثتها جرافات الاحتلال في الطريق إلى الجامعة.

وعقد الوفد لقاء مع السيد الرئيس ياسر عرفات في مقره برام الله، عبروا فيه عن تضامنهم معه ومع الشعب الفلسطيني في هذه الظروف الصعبة التي تمر بها فلسطين، مكاناً وإنساناً. وقد أثارت تصريحات الكاتب البرتغالي ساراماغو التي شبه فيها حملات القمع الاحتلالية للشعب الفلسطيني بما فعله النازيون ضد اليهود في أوشفيتز، أثارت حفيظة وزارة الخارجية الإسرائيلية التي عيّنت على تصريحاته بقولها:

«إنه من المؤسف أن مؤلف كتاب «العماء» يظهر عمى مطلقاً بأنه وقع ضحية للدعاية الفلسطينية الرخيصة التي جرأت على مساواة معاناة الشعب اليهودي بالأحداث الجارية في المناطق الفلسطينية والتي تحدث بايعاز مباشر من ياسر عرفات الذي يشجع أعمال العنف». كما أفادت وكالة الأنباء الفرنسية: في تقرير قامت بنشره: «أن ساراماغو قارن بين الأعمال التي تقوم بها إسرائيل في المناطق الفلسطينية وبين المساة التي تعرض لها الشعب اليهودي في مخيمات الإبادة»، وحسب قوله: «العمل هو نفس العمل حتى لو أخذنا بعين الاعتبار الفروق الزمانية والمكانية».

كما اختتم الوفد أعماله بأسمية مع جمهور المثقفين والشعراء والمبدعين الفلسطينيين في مسرح القصبه برام الله عبر لقاء أدبي دعت إليه مجلة الكرمل واتحاد الكتاب الفلسطينيين ومسرح القصبه. وقد تضمن اللقاء الذي أداره الروائي عزت الغزاوي قراءات لأعضاء الوفد الزائر حيث قامت سفيرة فلسطين في باريس ليلي شهيد بترجمة بعض المداخلات مباشرة للعربية.

من فلسطين شارك الشعراء: مريد البرغوثي، والمتوكل طه، وغسان زقطان، وزكريا محمد، وقدمت الفنانة الفلسطينية كاميليا جبران في الافتتاح أغنيتين من ألحان سعيد مراد وكلمات فدوى طوقان وسيد حجاب، كما قدم مفيد أبو عيشة وعماد الفراجين عرضاً مسرحياً، ليختتم الشاعر محمود درويش الأسمية بقراءة مقاطع من قصيدته الأخيرة «حالة حصار».

تعقيبات ..

وتعقياً على هذه الزيارة الخاصة والشجاعة، عبّر عدد من المبدعين المشاركين مع الوفد الضيف وغيرهم عن سعادتهم بهذه الخطوة التضامنية، حيث قال الشاعر مريد البرغوثي: هذا اللقاء مهم للغاية كونه

يساعدنا في محاربة التخريب الإعلامي لصورة الفلسطيني الذي عادة ما يتم تجريده من إنسانيته، هذا الوفد يستطيع أن يرى الفلسطيني الإنسان، وهذا هو الأهم .

كما أشار الشاعر المتوكل طه إلى أنه من حق الشعوب العيش بسلام بعيداً عن قمع الاحتلال، موضحاً أن كتاب العالم لا يزالون يعتمدون على المشهد التلفزيوني والضحايا المعلنين في التعبير عن تضامنهم معنا. أما الشاعر غسان زقطان فقال: بوجود هؤلاء المبدعين بيننا نشعر أننا بخير، وبأن صوتنا وصل إلى الأقباصي، ومساحة تأثيره بدأت بالاتساع، في فلسطين وهنا، تماماً نمد جسور التواصل حتى تبقى الكلمة ممكنة والرؤيا ممكنة كذلك.

وأوضح الروائي يحيى يخلف أننا نرغب في مد صلات الحوار الثقافي مع هؤلاء المبدعين، قبل أن نعرض عليهم صعوبة ظروفنا كمتقنين، كشعراء، وكتاب ونقاد .. صعوبة الحياة التي نواجهها بسبب العدوان والاحتلال الاسرائيلي، تضع أمام الحركة الثقافية عراقيل ليس لها مثيل.

أما رئيس اتحاد الكتاب الفلسطينيين عزت الغزالي فأكد أن هذا الحضور يأتي على خلفية أن فلسطين موجودة في ضمير العالم الذي تعبر عنه هذه الزيارة لهؤلاء الصفوة من الكتاب العالميين.

بينما أشار الشاعر محمد حلمي الريشة إلى أن كلمة الحق والحقيقة التي نطق بها الوفد، وخصوصاً الروائي البرتغالي خوسيه ساراماغو الذي قرأت له بعض الروايات وأعرف موقفه من قضايا الإنسان والعدل والحرية والسلام، تشكل ركيزة للاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الدفاع عن إنسانيته وذاته وثقافته ووجوده .

كذلك الشاعر علي الخليلي أوضح أنه لأول مرة يأتي كتاب عالميون إلى فلسطين ليعلنوا تضامنهم مع الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة.

نص كلمة الشاعر محمود درويش

يشرّفني ويسعدني أن أرْحَب بكم على هذه الأرض في ربيعها الدموي، على هذه الأرض العطشى إلى اسمها القديم: أرض المحبّة والسلام.

إن زيارتكم الشجاعة لنا الآن، في الحصار الوحشي، هي شكل من أشكال اختراق الحصار. فمعكم لا نشعر بالعزلة. ومعكم ندرك أن الضمير العالمي الذي تمثلونه بشرف ما زال حياً وقادراً على الاحتجاج، والانحياز إلى العدالة. ومعكم ندرك أيضاً أن دور الكُتّاب ما زال فاعلاً في معركة الدفاع عن الحرية في مقاومة العنصرية.

إن المسؤولية عن المصير الإنساني لا تجد تعبيرها في النصّ الأدبي وحده. ففي حالات الطوارئ والمآسي الإنسانية، يبحث الكاتب عن دوره الأخلاقي في أنواع أخرى من النشاط العام، تعرّز مصداقية أدبه، وتجندّ الوعي العام حول القيم العليا، وفي مقدمتها قيمه الحرية. وهذا ما نقرأه في رسالتكم النبيلة إلينا

اليوم: رسالة التضامن والتعاطف.

أعرف أن سادة الكلمات لا يحتاجون الى الكلمات الكبيرة أمام بلاغة الدم. فلتكن كلماتنا بسيطة كحقوقنا: لقد وُلدنا على هذه الأرض، ومن هذه الأرض. ولم نعرف أمماً أخرى ولا لغة أولى غير لغتها. وحين أدركنا أن فيها الكثير من التاريخ، والعديد من الأنبياء، تعلمنا أن التعددية فضاء لا زنزاة. وأنه ليس في وسع أحد أن يحتكر الأرض والله والذاكرة. ونعرف أن التاريخ ليس أنيقاً ولا عادلاً. ولكن مهمتنا، نحن البشر، هي أن نُؤسِّن التاريخ. فنحن ضحاياه ونتاجه معاً.

ليس هنالك ما هو أوضح من الحقيقة الفلسطينية والحق الفلسطيني: هذه بلادنا، وهذا الجزء الصغير هو جزء من بلادنا الواقعية لا الأسطورية. وهذا الاحتلال هو احتلال أجنبي لا يُستثنى من التعريف العام، مهما استعار من أسماء الحق الإلهي، فإله ليس ملكية شخصية لأحد.

لقد قبلنا بالحلل السياسية القائمة على مبدأ تقاسم الحياة على هذه الأرض في إطار دولتين لشعبين. ونحن لا نطالب إلا بحقنا في الحياة الطبيعية، في إطار دولة مستقلة على الأرض المحتلة العام 1967، بما فيها القدس الشرقية وبحل عادل لمشكلة اللاجئين، وبالتخلص من الاستعمار الاستيطاني. هذا هو المدخل الواقعي الوحيد لسلام يضع حداً لحلقة الدم المفرغة.

ليس هنالك ما هو أوضح من قضيتنا اليوم، فهي ليست قضية صراع بين وجودين كما تُصوِّرها الحكومة الإسرائيلية: «إمّا نحن، أو هم». ولكنها قضية إنهاء الاحتلال.

إن مقاومة الاحتلال ليست حقاً فقط. إنها واجب وطني وإنساني ينقلنا من شرط العبودية إلى شرط الحرية. وإن أقصر الطرق لتجنب المزيد من الكارثة، والوصول الى السلام، هو تحرُّر الفلسطينيين من الاحتلال، وتحرر المجتمع الإسرائيلي من وهم السيطرة على شعب آخر.

لا يكفي الاحتلال بحرماننا من شروط الحرية الأولية، بل يحرمننا أيضاً من شروط الحياة الإنسانية، بإعلانه الحرب الدائمة على أجسادنا وعلى أحلامنا، على البشر وعلى البيوت والشجر، وبارتكاب جرائم الحرب. ولا يعدنا إلا بفرض نظام الأبارتهايد، وبقدرة السيف على إلحاق الهزيمة بالدم.

لكننا مصابون بداء لا شفاء منه هو: الأمل. الأمل في التحرر والاستقلال. الأمل في حياة طبيعية لا نكون فيها أبطالاً ولا ضحايا. الأمل في أن يذهب أطفالنا إلى مدارسهم آمنين. الأمل في أن تلد المرأة الحامل ابنها، حياً، في المستشفى.. لا مَيِّتاً أمام حاجز عسكري. الأمل في أن يرى شعراؤنا جمال اللون الأحمر في الوردة لا في الدم. الأمل في أن تستعيد هذه الأرض اسمها القديم: أرض المحبة والسلام. فشكراً لكم على أنكم تحملون معنا عبء هذا الأمل.

كلمة وكيل وزارة الثقافة الفلسطينية

أود من أعماقي، وبعيداً عن عبارات المجاملة والبروتوكول، أن أعبر عن شكري واحترامي وتقديري لكم، ولهذه الزيارة الفريدة التي تتم في ظروف صعبة، تجسّمتم فيها الخطر، لتؤكدوا صلابة وقوة الضمير الثقافي الإنساني، ولتؤكدوا أن الكتابة من مواقعكم التقدمية عن قضية الإنسان هي رسالة اجتماعية وأخلاقية وفكرية.

وأؤكد لكم في البداية، أن الكثيرين من أبناء شعبنا الذين قرأوا أعمالكم أو سمعوا عنها، قد هزّ مشاعرهم مجيئكم للتضامن معنا، وأنهم اهتموا بزيارتكم أكثر من اهتمامهم بزيارات مسؤولين سياسيين أو وسطاء دوليين.

إننا محظوظون بوجودنا في هذا المكان اليوم، فقبل بضعة أيام كانت الدبابات الإسرائيلية التي اجتاحت هذه المدينة، ترابط أمام هذا المركز الثقافي وتفرض منع التجول، وتمنع حتى العصافير من الاستراحة على سياج الحديقة.

في محيط هذا المكان مدرسة لوثرية، وكنيسة، ومقر لوزارة التربية والتعليم، ومستشفى عام، ومع ذلك تحول هذا المكان وما يحيط به إلى تكتة عسكرية للقوات الإسرائيلية الغازية، وتحول السكان المدنيون إلى أسرى يحشرون في غرفة ضيقة، ويستعملون كدروع بشرية.

وعلى كل حال، كنت أود أن يكون الحوار بيننا وبينكم حول قضايا وأسئلة تتعلق بالتنوع الثقافي، وبالحدثة، وتقنيات الشعر والرواية وهموم أخرى يطرحها النقاد والدارسون، فنحن في هذا الجزء من العالم، وعلى الرغم من المعاناة والتعب وتعطشنا لزوال الاحتلال والحصول على الحرية والاستقلال، نتابع ما يجري في العالم من تطورات على صعيد الأدب والفن، ونفتح أبوابنا ونوافذنا لاستقبال كل التيارات الجديدة القادمة من مختلف المدارس الأدبية والفنية والفكرية، ندرسها ونتأملها، ونستفيد من معظمها لتعزيز معارفنا وثقافتنا، ولتعزيز هويتنا وذاتنا الثقافية.

نرغب في مد صلات الحوار الثقافي معكم قبل أن نعرض عليكم صعوبة ظروفنا كمثقفين، كشعراء وكتاب ونقاد، صعوبة الحياة التي نواجهها بسبب العدوان والاحتلال الإسرائيلي، والتي تضع أمامنا وأمام الحركة الثقافية الفلسطينية صعوبات ليس لها مثيل.

وأؤكد أننا نرغب في أن نستفيد من تجاربكم وخبراتكم، وأن ننظر بعمق إلى المحتوى الإنساني في إبداعاتكم، وأرجو أن يأتي الزمن المديد الذي يمنحنا هذه الفرصة، عندما تكون فلسطين دولة حرة وديمقراطية وذات سيادة.

نريد أن نكون مثل كتّاب وأدباء العالم، نجد وقتاً هادئاً للقراءة، ووقتاً آخر للتأمل، ووقتاً ثالثاً للكتابة.. نريد أن نغفو في ليلة هادئة لا نسمع فيها أصوات طائرات «الآباتشي»، وطائرات «أف 16»، ولا نسمع فيها.. أزيز الرصاص وهدير دبابات «المركفاه» الإسرائيلية، نريد أن نذهب إلى أعمالنا دون خوف، ودون أن

نتعرض للإهانات والإذلال على الحواجز الاحتلالية، ونريد أن يذهب أطفالنا إلى مدارسهم ويعودوا سالمين... .

نريد أن يكون في بلادنا أمسيات ثقافية، شعر وموسيقى، ومسرح ودور سينما، نريد أن تتاح لنا الفرصة لترميم ما تضر به بلادنا من آثار وممتلكات ثقافية ومقدسات، نريد أن تكون بيننا وبين بلدان العالم عملية تبادل ثقافي .. نريد أن يرحل الاحتلال ونريد أن نعيش بحريّة وكرامة وأمان.

مرة أخرى، أرحب بكم، وأوجه التحية لكل مثقف على امتداد هذا العالم، أعطى لقضيتنا العادلة دعمه وتأييده دفاعاً عن الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية ..

وأحب أن أوجه بهذه المناسبة تحية خاصة للكاتب الألماني الكبير غونتر غراس الذي أعلن عن رفضه لاحتلال إسرائيل لبلادنا، والذي أعلن أن المستوطنات الإسرائيلية التي أقيمت في الأراضي الفلسطينية هي غير شرعية وأقيمت بطريقة إجرامية، والذي أدان سياسات حكومة شارون التي دمرت عملية السلام. أوجه له التحية، وأعلن عن إعجابي به وتضامني معه وهو يواجه حملة إسرائيلية وصهيونية تتهمه بمعاداة السامية والتشكيك بحق إسرائيل في الوجود. إنهم يمارسون عليه الإرهاب الفكري لأنه امتلك الضمير الثقافي العالي، وأعلن أنه مع العدل والسلام العادل.